أئمة الأدب

١

الجاحظ

بقلم

خليل مردم بك

عنيت بنشره

مكتبة عرفة

دمشق : شارع المكتبية

١٣٤٩ هـ

١٩٣٠ م

مطبعة الاعتدال

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة في امام الادب ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تتلوها رسائل في غيره من ائمة الادب ، فنستعين الله ونستهديه ·

خليل
مردم بك

الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥

حياته

في ابن عصر من عصور المدنية الاسلامية ، وفي البصرة احدى حواضر العلم والادب ولد ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٠

كل من ترجم للجاحظ لم يعين سنة ميلاده وانما المعروف انه ولد في منتصف القرن الثاني ، الا ان هناك رواية انفرد بها ياقوت الحموي في معجم الادباء قال : « قال الجاحظ انا اسن من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها » فاذا صحت هذه الرواية يكون الجاحظ قد عمر اكثر من مائة سنة لانه توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ٠

اما نسبه فلا نعلم منه الا انه عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ٠ كان جده محبوب اسود جمالا لابي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي ، وبذلك قال يموت بن المزرع ابن اخت الجاحظ ٠ على ان هناك من يدعي انه كناني صريح مثل ابي القاسم البلخي ٠ اما سبب تلقيبه بالجاحظ فلجحوظ عينيه ٠

نشأ الجاحظ بالبصرة نشأة فقير يعمل ليعيش فقد روي عنه انه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان (وسيحان نهر بالبصرة) ثم انصرف الى العلم والادب فطلبهما في البصرة و بغداد . تلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد، وسمع من ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري، واخذ النحو عن ابي الحسن الاخفش وكان صديقه ، واخذ الكلام عن النظام، وكل من هؤلاء امام في فنه . وكان الجاحظ مشهوراً بكثرة المطالعة، قيل انه ماوقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للمطالعة .

وكذلك انقطع للعلم والتأليف فأصبح فيهما علما وشاع ذكره واقبل الناس على تصانيفه وصار لقاؤه شرفا . قال سلام بن زيد احد علماء الاندلس: كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ فخرجت لا اعرج على شيء حتى قصدته واقمت عليه عشرين سنة . وانفرد الجاحظ بآراء في التوحيد صارت مذهبا من مذاهب المعتزلة واخذ باقواله جماعة عرفوا بالجاحظية . واعجب المأمون بكتبه . وصدر في ديوان الرسائل ايام المأمون ثلاثة ايام ثم استعفى فأعفي . وكان سهل بن هرون يقول : ان ثبت الجاحظ في

هذا الديوان افل نجم الـكتاب .

ثم اتصل الجاحظ بمحمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم والواثق ولازمه واختص به وقدم اليه كتاب الحيوان ، فلما قبض على ابن الزيات في خلافـة المتوكل هرب الجاحظ فقيـل له لم هربت فقال خفت ان اكون ثاني اثنين اذ هما في التنور ، يريـد ماصنع بابن الزيات وادخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه فعذب هو فيه حتى مات .

ولقد اصاب الجاحظ رشاش من هذه المحنة فانه جيء بـه مقيدا الى القاضي احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر اليه قال : والله ماعلمتك الا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة معدنا للمساوي . فقال له الجاحظ : خفض عليك ايدك الله ، فوالله لان يكون لك الامر علي خير من ان يكون لي عليـك ، ولان اسيء وتحسن احسن من ان احسن فتسيء ، وان تعفو عني في حال قدرتك اجمل من الانتقـام مني . فقـال له ابن ابي دواد : قبحك الله ماعلمتك الا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيئوا بحداد ، فقال اعز الله القاضي ، ليفك عني اوليزيدني ؟ فقال بل ليفك عنـك ، فجيء بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ

و يطيل امره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة (١) فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه، وقال ابن ابي دواد لبعض الحاضرين انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه، ثم قال يا غلام صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه ، ثم اقبل عليه وقال هات الان حديثك يا ابا عثمان . واصطلحت الحال بينهما واهدى اليه الجاحظ كتاب البيان والتبيين .

واتصل الجاحظ ايضا بالفتح بن خاقان وسافر معه الى دمشق ووصف مسجدها في كتابه (البلدان) كما انه دخل معه انطاكية وشكا من براغيثها و بقها .

وهكذا قضى الجاحظ ايامه في العلم والادب والتصنيف حتى اصيب بالفالج في اعقاب عمره وكان ذلك في اواخر خلافة المتوكل ، قيل ان المتوكل وجه من يحمل الجاحظ اليه من البصرة، فقال لمن اراد حمله وما يصنع امير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل .

---

(١) الساجة شجرة عظيمة خشبها صلب .

وقال المبرد : دخلت على الجاحظ في آخر ايامه فقلت له كيف انت فقال كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه، واشد من ذلك ست وتسعون سنة انا فيها ثم انشدنا :

اترجو ان تكون وانت شيخ ... كما قد كنت ايام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

وقال لمتطبب يشكو اليه علته : اصطلحت الاضداد على جسدي ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان اكلت حاراً اخذ برأسي . وتوفي الجاحظ بالبصرة في خلافة المعتز في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين .

صفته

كان الجاحظ دميم الخلقة مشوهاً جاحظ العينين ولذلك قيل له الجاحظ والحدقي، ولنا من صراحته وفكاهته وحسن اخلاقه دليل على تعرف دمامته، فأكثر ما روي عن تشويه خلقه مروي عنه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . وهناك اخبار في قبح صورته مروية عنه اغفلناها لانها لا تختلف عما ذكرناه

ولقد قال فيه بعضهم :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ... ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه ... وهو القذى في كل طرف لاحظ

مذهبه

الجاحظ شيخ من شيوخ المعتزلة وامام فرقة من فرقهم تدعى الجاحظية، وقبل الكلام عن هذه الفرقة لا بأس بتعريف المعتزلة على سبيل الاختصار .

المعتزلة

المعتزلة — ويسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد — فرقة اسلامية رئيسها ابو حذيفة واصل بن عطاء الغزال كان تلميذا للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والاخبار ويحضر حلقته، واتفق انه انفرد عن استاذه في مسألة فترك الحلقة واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد وتبعه جماعة من اصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمي واصحابه معتزلة .

انفرد المعتزلة عن اهل السنة بآراء في الكلام لا محل للتبسط فيها . ويمكن الاشارة اليها بما يأتي :

اتفق المعتزلة على القول بان الله تعالى قديم ونفوا الصفات القديمة اصلا، واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق، واتفقوا على نفي روئية الله تعالى بالابصار في الآخرة ونفي التشبيه عنه من كل وجه، وسموا هذا النمط توحيدا .

واتفقوا على ان العبد خالق لافعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الاخرة ، والله تعـالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالما كما لو خلق العدل كان عدلا ، واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير وسموا هذا النمط عدلا .

واتفقوا على ان المؤمن اذا مات على طاعة استحق الثواب واذا مات عن كبيرة ارتكبها من غير توبة استحق الخلود في النار لكن عقابه اخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا .

واتفقوا على ان اصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل ، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك ، وورود التكاليف الطاف للباري ارسلها الى العباد بتوسط الانبياء امتحانا واختبارا .

ولا بد من الاشارة الى ان المعتزلة من اكثر الفرق الاسلامية

تحكيما للعقل واطلاعا على الفلسفة وقد وافقوا الفلاسفة في بعض مسائل التوحيد .

الجاحظية

وافترقت المعتزلة الى فرق عديدة تربو على العشرين منها الجاحظية وهم اصحاب الجاحظ قال الشهرستاني : طالع الجاحظ كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروج بعباراته البليغة وحسن براعته اللطيفة وانفرد بمسائل منها قوله : ان المعارف كلها طباع وليس شيء من ذلك من افعال العباد وليس للعباد كسب سوى الارادة، وقال باثبات الطبائع للاجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجواهر فالاعراض تتبدل والجوهر لايجوز ان يفنى . ومنها قوله في اهل النار انهم لا يخلدون فيها عذابا بل يصيرون الى طبيعة النار . وكان يقول النار تجذب اهلها الى نفسها دون ان يدخل احد فيها .

ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات . وفي اثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة .

وقال ان الخلق كلهم من العقلاء عالمون بان الله تعالى خالقهم وعارفون بانهم محتاجون الى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم

صنفان عالم بالتوحيد وجاهل به ، فالجاهل معذور والعالم محجوج .

وحكى ابن الراوندي عنه ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا .

ثم قال ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة الا ان الميل منه ومن اصحابه الى الطبيعيين منهم اكثر منه الى الالهيين

سعة علمه وجلالة قدره

ما رزقت العربية كاتبا اكثر علما واوسع مادة واجمع لانواع العلوم معقولها ومنقولها من الجاحظ . وتقدم بنا انه ادرك طائفة من ائمة الادب واخذ عنهم كما اخذ الكلام عن النظام احد ائمة المعتزلة واكثر من مطالعة كتب الفلسفة . قال ابو هفان : لم ار قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وذكر ابن عساكر ان الجاحظ حدث عن حجاج بن محمد والقاضي ابي يوسف وثمامة بن اشرس النميري ، وروى عنه ابو سعيد الحسن بن علي العدوي وابو بكر عبد الله بن ابي داود ودعامة بن الجهم وابو العباس محمد بن يزيد المبرد ويموت ابن

المزرع وابو العيناء محمد بن القاسم وابو دلف هشيم بن محمد الخزاعي .

ولقد كان شعار الجاحظ في طلب العلم قوله : اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الاول للاخر شيئا فاعلم انه ما يريد ان يفلح . وقوله ايضا : وكلام كثير قد جرى على السنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة فمن اضر ذلك قولهم لم يدع الاول للاخر شيئا ، فلو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في اسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين لعصره واستنبط واجتهد وانتقد وزاد والف في الادب والعلم والدين وكان اماما في كل منها .

قال المرزباني قال ابو بكر احمد بن علي : كان ابو عثمان الجاحظ من اصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن اعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين ، والاداب والاخلاق وفي ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها واذا تدبر العاقل المميز امر كتبه علم انه ليس في تلقيح العقول وشحذ

الاذهان ومعرفة اصول الكلام وجواهره وايصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الامور .

وقال ثابت بن قرة : ما احسد هذه الامة العربية الا على ثلاثة اولهم عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته و . . . الخ ، والثاني الحسن البصري فلقد كان من دراري النجوم علما وتقوى و . . . الخ ، والثالث ابو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، ان تكلم حكى سحبان البلاغة ، وان ناظر ضارع النظام في الجدل ، وان جد خرج في مسك عامر بن عبدقيس ، وان هزل زاد على مزيد ، حبيب القلوب ومراح الارواح وشيخ الادب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله افنان مثمرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آنفا ، ولا تعرض له منقوص الا قدم له التواضع استبقاء . الخلفاء تعرفه ، والامراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والادب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت حكمته وظهرت

خلفه ووطيء الرجال عقبه وتهادوا اربه، وافتخروا بالانتساب اليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد اوتي الحكمة وفصل الخطاب .

ومن اطلع على شيء من كتب الجاحظ سلم بما نقلناه من تقريظه وحكم انه المرجع في خزانة ادبنا بل هو الشارع للتأليف ولا يزال اماماً يهتدى بهديه .

قال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة انفس، اما الفقه فعلى ابي حنيفة، واما الكلام فعلى ابي الهذيل، واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ .

ولقد الف ابو حيان التوحيدي كتاباً في تقريظ الجاحظ .

وقيل لابي هفان لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك واخذ بمخنقك فقال امثلي يخدع عن عقله؟ والله لو وضع رسالة في ارنبة انفي لما امست الا بالصين شهرة، ولو قلت فيه الف بيت لما طن منها بيت في الف سنة .

ولقد بلغ الجاحظ من جلالة القدر ان يرى نفسه في آخر ايامه اعظم من ان ينقطع الى الخلفاء، وكان الوزراء والحجاب عرفوا منه ذلك فلقد كتب اليه الفتح بن خاقان كتابا يقول في فصل منه :

ان امير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول فيه ومتوفر عليه ·

وفي ابن خلكان ان بعض البرامكة مر بالبصرة والجاحظ عليل فذهب ليراه فلما قرع الباب خرجت خادم فقالت من انت فقال رجل غريب واحب ان اسر بالنظر الى الشيخ فبلغته الخادم ما قال فقال الجاحظ: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال احب ان اراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ ·

والاخبار في هذا الباب مستفيضة نختمها بما رواه ابن عساكر في تاريخه ولا ندري كنه هذه الرواية اهي من جد الجاحظ ام هزله : قال علي بن قاسم الخوافي حدثني بعض اخواني انه دخل على الجاحظ فقال يا ابا عثمان كيف حالك فقال الجاحظ سألتني عن الجلة فاسمعها مني واحداً واحداً حالي ان الوزير يتكلم برأيي وينفذ امري ويواتر الخليفة الصلات الي وآكل من لحم الطير اسمنها والبس من الثياب افخرها واجلس على الين الطبري واتكئ على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج · فقال له الرجل الفرج ما انت فيه · قال بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل

محمد بن عبد الملك بامري و يختلف الي فهذا هو الفرج ·

اسلوبه وخصائصه

لا اعرف في كتاب العربية كاتبًا يداني الجاحظ في قوة طبعه على الانشاء وانقيــاد الجمل اليه فهو في النثر كالبحتري في الشعر وطبع كل منهما في فنه مضرب المثل · وما اشبه الجاحظ في ترادف جمله بالبحر الزاخر ما يرسل موجة الا ليعقبها باخرى

يروعك من اسلوب الجاحظ ذلك السمو في المفردات والتراكيب الصادرة عن طبع فياض ليس للتعمل فيه اثر البتة · فهناك ما شئت من سلاسة وسهولة ،وهنــاك ما شئت من بسط واسهاب · واعظم من هذا تلك الشخصية البارزة الماثلة في كل فقرة من فقر الجاحظ ، فما اذكر انني قرأت فصلا له الا تمثل لي في كل جملة عينان جاحظتان تنظران نظرات فيها من معاني الجد والهزل ما لا تترجم عنه الا العيون · فهو من هــذه الجهة اكبر كتاب العربية شخصية وكل كلمة من كلماته تكاد تكون مطبوعة بطابعه الخاص ·

يكثر الجاحظ من الاستطراد حتى يخرج بالقاري عن الموضوع الذي عقد له الفصل ، وما اظن ذلك نشأ الا عن غزارة مادته وطاعة الالفاظ له و كثرة المران على الجدل ·

عالج الجاحظ كل ما عرف لوقته من ضروب العلم فكتب في التوحيد والقرآن ومذاهب الفرق الاسلامية، وكتب في الادب وفنونه شعرا ونثرا وجدا وهزلا ، وكتب في الاخلاق والاجتماع وطبائع الناس، وكتب في الحيوان والنبات، ولم يفته ان يكتب في الطب والكيمياء . فكأن كتبه صورة عن الكون تبتدىء بالذر الحقير وتنتهي الى الخالق العظيم ولا تخطىء ما بينهما .

يعمد الجاحظ الى الموضوع الحقير كالنملة مثلاً فلا يزال يصف طبائعها ويورد الحقائق على حزمها حتى تعظم في نفسك . ويقصد الى الموضوع العظيم كمحنة الامام احمد في القول بخلق القرآن فلا يزال يهوّن المحنة حتى تظن ان الامام غُلب بالحجة لا بالقوة . وذلك من سحر البيان وان من البيان لسحرا . وهو بعد في دقة التصوير وحكاية الواقع ووصف الحديث آية لا تعدلها آية .

ادب الجاحظ ادب واقعي بل طبيعي ، يؤثر التصريح على التلويح، ويصور الحقيقة كما هي، ويرى في ذلك السبيل الاقوم فيدعو اليه، ويعيب من يرغب عنه قال : « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء،

فالسخيف للسخيف، والجزل للجزل، والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال. وان كان موضع الحديث على انه مضحك وملهى، وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته. وان كان في لفظه سخف، وابدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على يسر النفوس، يكربها ويأخذ باكظامها. وبعض الناس اذا انتهى الى ذكر الحر ... و ... ارتدع واظهر التعزز واستعمل باب التورع، واكثر من نجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع»

وربما تعمد الجاحظ اللحن في نقل احاديث الناس ليحافظ على روايتها كما نطق بها اصحابها. قال في كتاب الحيوان يحكي ما قاله ابراهيم النظام في كلب «ان كنت سبع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض وان كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم. ثم قال الجاحظ، ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي ان كنت سبع ولم اقل ان كنت سبعا، وانا اقول ان الاعراب يفسد نوادر المولدين، كما ان اللحن يفسد كلام الاعراب، لان سامع ذلك

الكلام انما اعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة. فاذا دخلت على هذا الامر – الذي انما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيها – حروف الاعراب والتخفيف والتثقيل، وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء واهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته »

وهو لا يقف عند هذا الحد بل ربما نقل كلام الاعجمي بنصه، قال في كتاب البخلاء يحكي حديث بخيل من اهل مرو تجاهل ضيفا زاره من اهل العراق: لو خرجت من جلدك لم اعرفك. قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوست باروں بيائى نشناسيم » (١)

هذا من حيث الرواية والحكاية، وهو في غيرهما ايضاً لا يرى بأساً باستعمال الكلمات الفارسية، كقوله في كتاب البخلاء: « وكانوا يعلمون ان احضار الجدي انما هو شيء من آيين (٢) الموائد الرفيعة ». وكذلك فانه استعمل كلمة « بانوان » وفسرها

---

(١) هنا يتساءل الانسان هل كان الجاحظ يعرف الفارسية.
(٢) آيين كلمة فارسية معناها العادة.

بقوله : (والبانوان الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول بانوا وتفسير ذلك بالعربية يا مولاي) .

والجاحظ بعد زاهد في السجع ، يوءثر السهولة على الحزونة ، والوضوح على الغموض ، والبسط على الايجاز . قال بديع الزمان الهمذاني : « كلام الجاحظ بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، او لفظة غير مصنوعة » .

ومن خصائص الجاحظ في اسلوبه الدعابة والفكاهة والتنادر والسخرية والتهكم ، وتلك امور تخف على نفس القارىء وتستهويه ، ولها محل رفيع في آداب الامم الحية ، ولكن ادبنا لا يزال ينقصه شيء كثير منها . والجاحظ في هذا الباب فرد لا يضارعه احد .

. . .

ادب الجاحظ ادب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد موءلفا يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبذ الجميع في

ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره · ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه، وعما وصل اليه العلم والادب والاجتماع ·

يعتمد ادب الجاحظ على عناصر شتى ، اقواها بلاغة العرب في الجاهلية والاسلام، والكتاب والسنة، وما نقل الى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم، ولكن اظهر مايكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر ·

لئن كان ابن المقفع امام الكتاب في عصر الترجمة، فالجاحظ إمامهم في عصر الوضع والتأليف والابداع وتكوين الادب الحضري المرتكز على اسس العلم والمدنية والتفكير من غير ان يفقد شيئا من فصاحة البداوة وروعتها ·

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الادب، وكل من الف بعده متأثر بطريقته شعر ام لم يشعر · قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزي حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال ايضا : « الآمدي مليح التصنيف جيد التأليف متعاطي مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب » ·

ولم يقف اثره عند هذا الحد بل تعداه الى ان اصبحت

الكتاب تترسم خطاه في الانشاء بل تقتبس جمله ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس . قال القاضي الفاضل : « واما الجاحظ فما منا معشر الكتاب الا من دخل داره ، اوشن على كلامه الغارة ، وخرج وعلى كتفه منه الكارة »

والجاحظ يكره التكلف كما يكره الاسفاف ، و يعجب بالطبع السليم كما يعجب بالفكر الثاقب قال :

« احسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل البسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه وتقوى قائله . فاذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، ومصونا عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، اصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة » .

هذا وفي انشاء الجاحظ كثير من اساليب الخطابة والجدل ، وله جملة تدل على ذلك قال : « ينبغي للكاتب ان يكون رقيق

حواشي اللسان، عذب ينابيع البيان، اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى . لا يكلم العامة بكلام الخاصة، ولا الخصة بكلام العامة » .

ومما يشهد بسرعة جوابه وذلاقة لسانه قوله لرجل آذاه: «انت والله احوج الى هوان من كريم الى اكرام، ومن علم الى عمل، ومن قدرة الى عفو، ومن نعمة الى شكر » .

وفي اجوبته واحاديثه قليل من السجع والصنعة بخلاف انشائه، قال ابو سعد داود بن الهيثم رأيت الجاحظ يكتب شيئا فتبسم ، فقلت مايضحكك ؟ فقال : « اذا لم يكن القرطاس صافيا، والمداد ناميا، والقلم مواتيا، والقلب خاليا، فلا عليك ان تكون كابيا» .

ووصف الحبارى فقال : « سلاحها سلاحها » ووصف نبات الفروج فقال: « يخرج كاسيا كاسيا » وكان يقول: «من صنف فقد استهدف، فان احسن فقد استعطف، وان اساء فقد استقذف» .

وكأنه كان يستعمل ذلك في كلامه من باب التظرف والتملح .

دعابة وفكاهة

كان في الجاحظ على جلالة قدره دعابة وفكاهة وخفة روح فهو يخلط الهزل بالجد، ويجيد النكتة جوابا و كتابة ورواية، ولا تجد كاتبا من الكتاب شاعت النكتة في آثاره وحرص عليها مثل الجاحظ . وربما قيد الى النكتة بالسلاسل ، فكان ذهوله ونسيانه فكاهة مستملحة قال: « نسيت كنيتي ثلاثة ايام حتى اتيت اهلي فقلت لهم بم اكتني ؟ فقالوا بابي عثمان »

وطالما استعمل الجاحظ فكاهته في النقد اللاذع ، فعبث بالقصاص الدجالين ، وتنادر على غلاة الشيعة ، وسخر بالحكام ووسطائهم ، وتهكم على الادعياء ، وضحك من الاغبياء ، فبلغ من كل ذلك مبلغا لا ينال بالجد .

سأله بعضهم ان يعطيه كتابا الى بعض العمال يكون بمثابة وسيلة ، فبعث الجاحظ بكتاب مختوم فيه : «هذا الكتاب مع من لا اعرفه ، وقد كلمني فيه من لا اوجب حقه، فان قضيت حاجته لم احمدك، وان رددته لم اذممك» فلما سئل عن ذلك قال: هذه علامة بيني و بين الرجل فيمن اعتني به . فقال المكتوب لاجله : ام الجاحظ عشرة الاف في عشرة الاف . . . . وام من يسأله حاجة .

فلما استنكر منه ذلك قال: هذه علامتي فمن انكره - فضحك الجاحظ

قال ابو كريمة - ولعله هو الذي كتب الكتاب لاجله -

لا يطلع الله عمرا حين صيره

من كل شيء سوى آدابه عاري

بتت حبال وصال كفه قطعت

لما استعنت به في بعض اوطاري

فكنت في طلبي من عنده فرجا

كالمستغيث من الرمضاء بالنار

اني اعيذك والمعتاذ محترس

من شؤم عمرو بعز الخالق الباري

فان فعلت فحظ قد ظفرت به

وان ابيت فقد اعلنت اسراري

وصار الجاحظ الى منزل بعض اخوانه فاستأذن عليه، فخرج اليه غلام اعجمي فقال من انت؟ قال الجاحظ. فدخل الغلام الى صاحب الدار فقال الجاحد على الباب، وسمعها الجاحظ. فقال صاحب الدار للغلام: اخرج فانظر من الرجل، فخرج يستخبر عن اسمه، فقال انا الحدقي، فدخل الغلام فقال: الحلقي، وسمعها الجاحظ

فصاح به في الباب: ردنا الى الاول، يريدان قوله اجحد مكان الجاحظ، اسهل عليه من الخلق مكان الحدقي. فعرفه الرجل فوصله واعتذر اليه.

وقال الجاحظ مرة بحضرة السدري: «اذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت .....» فقال له السدري وكيف؟ قال لانها تأخذ الدراهم، وتمتع بالناس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت. فقال له السدري فكيف عقل العجوز حفظها الله؟ قال هي احمق الناس واقلهم عقلا.

واتاه يوما رجل فقال: سمعت ان لك الف جواب مسكت فعلمني منها، قال نعم، فقال اذا قال لي شخص يازوج الفاعلة ياثقيل الروح اي شيء اقول له؟ قال قل له صدقت.

وقال الجاحظ: كان رجل من اهل السواد تشيع وكان ظريفا، فقال ابن عم له: بلغني انك تبغض عليا عليه السلام، والله لئن فعلت، لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك. قال والحوض في يده يوم القيامة؟ قال نعم، قال وما لهذا الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الاخرة بالعطش، فقيل له اتقول

هذا مع تشبعك ودينك ؟ قال والله لا تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا ، وادخلتني النار في الآخرة .

وقال : كان يأتيني رجل فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان ، لو ادعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ، فاجابني الى ذلك ، فجعلت احفظه نسبا حتى حفظه وهذه هذاً ، فقلت له : الان ، لاتته علينا ، فقال : سبحان الله ! ان فعلت ذلك فانا اذن دعي .

وروى ابن عساكر ان الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد في سوق النخاسين ينادى عليها ، فدعوت بها وجعلت اقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ قالت مكة ، قلت الله اكبر ! قد قرب الحج أتأذنين ان اقبل الحجر الاسود ؟ قالت اليك عني ! اولم تسمع الله يقول : « لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس »

وقال الجاحظ : كنت وقفت انا وابو حرب على قاص فاردت الولوع بـه ، فقلت لمن حوله : انه رجـل صالح لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا . فقال لي : الله حسيبك اذا لم ير الصياد طيرا كيف يمد شبكته .

وقال ايضا : اشتريت عبدا بمائة درهم فاسترخصته ، فتمشيت

سمكا فنمت فاستدعيت منه ماء ، فقال اسكت تأكل السمك وتشرب عليه الماء ليتولد منه كذا وكذا وامتنع . فلما اشتدعطشي قمت وشربت، فقال: يامولاي احمل معك حتى اشرب انا ايضا .

وقال ايضا : حدثني ثمامة بن اشرس قال شهدت رجلا يوما من الايام وقد قدم خصما له الى بعض الولاة فقال : اصلحك الله! ناصبي رافضي جهمي مشبه مجبر قدري ، يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على علي بن ابي سفيان ، ويلعن معاوية بن ابي طالب . فقال له الوالي : ماادري مم اتعجب، من علمك بالانساب، او من معرفتك بالمقالات ، فقال : اصلحك الله ما خرجت من الكتاب حتى تعلمت هذا كله .

وقال ايضا : كنت مجتازا في بعض الطرق ،فاذا انا برجل قصير بطين، كبير الهامة طويل اللحية، متزر بمئزر بيده مشط يشق به شقه ويمشطها بيده ، فقلت في نفسي رجل قصير بطين الحى فاستزريته فقلت : ايها الشيخ قد قلت فيك شعرا ، فترك المشط من يده وقال قل ، فقلت :

كانك صعوة في اصل حش　　　اصاب الحش طش بعد رش

فقال لي : اسمع جواب ما قلت ، فقلت هات ، فقال :

كأنك كندر في ذيل كبش　　تدلدل هكذا والكبش يمشي

وكان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة ، فتولع محمد بالجاحظ وامر ان يجعل من جهته مارق من الجام ، فسرع في الاكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات تقشعت سماؤك قبل الناس ، فقال الجاحظ : لان غيمها كان رقيقا .

وقال الجاحظ في مغفل اسمه كيسان : كان يكتب غير مايسمع ، ويستملي غير مايكتب ، ويقرأ غير مايستملي ، ويملي غير مايقرأ . امليت عليه يوما :

عجبت لمعشر عدلوا　　بمعتمر ابا عمرو

فكتب ابا بشر ، وقرأ ابا حفص ، واستملى ابا زيد .

وفي تاريخ ابن عساكر قال ابو بكر محمد بن اسحاق قال لي ابراهيم بن محمود ونحن ببغداد : الا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ فقلت مالي وله ، قال انك اذا انصرفت الى خراسان سألوك عنه فلو دخلت عليه وسمعت كلامه ، ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يوما ، فقدم الينا طبقا عليه رطب فتناولت منه ثلاث رطبات وامسكت ، ومر ابراهيم فاشرت اليه ان يمسك ، فرمقني الجاحظ فقال لي :

دعه يافتى فقد كان عندي في هذه الايام بعض اخواني فقدمت اليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فابى الا ان يبر قسمي بثلاثمائة رطبة ·

حسن محاضرته

لم يكن الجاحظ من اولئك العلماء المتزمتين الذين زووا وجوههم عن المجتمع، وتجاهلوا ما يحيط بهم من احوال عصرهم، واقتصروا على فهم الحياة من الكتب · كلا فلقد كان كثير الاختلاط يلابس طبقات الناس كلها من الخليفة وحاشيته الى الحراس(١) · فاضاف الى واسع روايته في الادب، عظيم خبرته لاهل زمانه · فضلا عن حدة ذكائه وقوة عارضته، وعما ركب في طبعه من حب الدعابة والفكاهة - فليس عجيبا ان يكون حلو الحديث حسن المحاضرة حاضر الجواب سريع النكتة، وحسبنا ان نروي من ذلك قصة رواها ابن خلكان قال قال الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري، فامر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني فخرجت من عنده فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض علي الخروج معه

(١) انظر حديثه مع الحارس في باب الكلب من كتاب الحيوان ·

والانحدار في حراقته ، وكنا بسر من رأي ، فركبنا في الحراقة فلما انتهينا الى فم نهر القاطول نصب ستارة وامر بالغناء ، فاندفعت عوادة فغنت :

كل يوم قطيعة وعتاب ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري انا خصصت بهذا دون ذا الخلق ام كذا الاحباب

وسكتت فامر الطنبورية فغنت :

وارحمتا للعاشقينا ما ان ارى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا

قال فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا؟ قالت هكذا يصنعون! وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها ، وبرزت كأنها فلقة قمر ، فالقت نفسها في الماء . وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مذبة فاتى الموضع ونظر اليها وهي تمر بين الماء فانشد :

انت التي غرقتني بعد القضا لو تعلمينا

والقى نفسه في اثرها . فادار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ثم غاصا فلم يريا . فاستعظم محمد ذلك وهاله امرهما ثم قال : ياعمرو لتحدثني حديثا يسليني عن فعل هذين والا الحقتك بهما . قال فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوما وعرضت

عليه القصص، فمرت به قصة فيها : ان رأى امير المؤمنين ان يخرج الي جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة اصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك وامر من يخرج اليه و يأتيه برأسه، ثم اتبع الرسول رسولا آخر يأمره ان يدخل اليه الرجل فادخله ، فلما وقف بين يديه قال له : ماالذي حملك على ماصنعت ؟ قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك . فامره بالجلوس حتى لم يبق احد من بني امية الا خرج ، ثم امر فاخرجت الجارية ومعها عودها فقال لها الفتى غني

افاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي

فغنته ، فقال له يزيد قل ، فقال غني :

تألق البرق نجديا فقلت له
يا ايها البرق اني عنك مشغول

فغنته ، فقال له يزيد قل ، فقال يامولاي تأمر لي برطل شراب ، فامر له به ، فما استتم شربه حتى وثب وصعد على اعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات . فقال يزيد انا لله وانا اليه راجعون، اتراه الاحمق الجاهل ظن اني اخرج اليه جاريتي واردها الى ملكي ، ياغلمان خذوها بيدها واحملوها الى اهله ان كان له

اهل ، والا فبيعوه وتصدقوا عنه بثمنها · فانطلقوا بها الى اهله فلما توسطت الدار نظرت الى حفيرة في وسط دار يزيد قداعدت للمطر فجذبت نفسها من ايديهم وانشدت :

من مات عشقاً فليمت هكذا
لاخير في عشق بلا موت

فالقت نفسها في الحفيرة فماتت · قال الجاحظ فسري عن محمد واجزل صلتي ·

كتبه

الجاحظ من اقدم المؤلفين واكثرهم تصانيف في كل فن وعلم كان معروفاً لزمانه ، بل يمكن ان يقال انه هو الذي شرع التأليف في الادب · وكتبه تجمع الى العلم والفائدة البراعة في التعبير وسحر البلاغة في الاسلوب وتبعث الشوق على المطالعة لما فيها من النوادر والنكات الشائعة فيها · وهي سنة المؤلفين من بعده بها اقتدوا وعلى سبيلها نهجوا ، ولولاها لفقد كثير من آداب العرب ، ولا تزال في غزارة المادة المرجع والامام ، ولولا عدم تنسيقها لما فضلها كتاب ·

كان ابو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الاندلسي يقول :

رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها ·

وقال ابو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ الرئيس ابي الفضل (ابن العميد) فقصر رجل بالجاحظ وازرى عليه ، وحلم الاستاذ عنه ، فلما خرج قلت له : سكت ايها الاستاذ عن هذا الجاهل في قوله مع عادتك بالرد على امثاله · فقال : لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه لصار انساناً · يا ابا القاسم كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا ·

وقال ابو علي الحسن بن داود : نفخر اهل البصرة باربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل ·

وقد بلغ شغف الناس بكتب الجاحظ وتهافتهم عليها ان ابا بكر بن الاخشاد اراد ان يطلع على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي فلم يظفر به ، فلما دخل مكة حاجا اقام مناديا بعرفات ينادي : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي على اي وجه كان ·

اما مؤلفات الجاحظ فتعد بالمئات ، ورد في مقدمة كتاب

التاج ان الجاحظ ترك نحواً من ثلاثمائة وستين موءلفا رآها سبط ابن الجوزي كلها تقريبا في مشهد ابي حنيفة النعمان ببغداد ·

اما نحن فنتكلم الآن على ما طبع منها وهو قليل جدا ثم نذكر اسماء ما اتصل بنا من كتبه التي لم تطبع ·

كتبه المطبوعة

١ — البيان والتبيين: احد اركان كتب الادب واقدمها اهداه الجاحظ الى ابن ابي داود فاعطاه خمسة آلاف دينار · والكتاب يبحث في فنون الادب والبلاغة نثرا ونظما ويتناول النقد واللغة وياتي على ذكر الادباء والخطباء والمنشئين والشعراء ويمثل بنماذج من اقوالهم · وفيه طائفة صالحة من كلام النبي والخلفاء والصالحين والزهاد والنساك وفصحاء الخوارج ، وما يقابل ذلك من كلام اللحانين والنوكى والموسوسين والجفاة والاغبياء ، الى احاديث ونوادر مبثوثة في الكتاب · وهو من اجل وثائق الادب العربي في الجاهلية والاسلام · وكل من الف بعده في الادب نهج على منواله على ما فيه من نقص في التنسيق ·

٢ — كتاب الحيوان : اهداه الى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فاعطاه خمسة آلاف دينار ، وهو اول كتاب الف في

موضوعه يدخل في سبعة اجزاء و يبحث عن طبائع الحيوان وما ورد فيه من الاخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون وما قالته العرب فيه من الشعر فضلا عما اختبره المؤلف بنفسه . وفي الكتاب استطرادات كثيرة يسوقها المؤلف لادنى مناسبة ، فينتقل بالقاريء من موضوع الى آخر وكثيراً ماتتسلسل المناسبات حتى يخرج عن الصدد ، ولكن القاريء يقف في اثناء ذلك على اخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الاسلامية وما بلغته في القرن الثالث . فهناك اشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آي القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الاسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، اضف الى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس مما ترجمه العرب ومما تسوق اليه المناسبة في ذلك الكتاب ، فضلا عن انه يصور كثيرا من وجوه الحياة في القرن الثالث .

٣ — كتاب البخلاء : كتاب طريف جمع فيه الجاحظ اخبار البخلاء ونوادر الاشحاء ، وصدره برسالة سهل بن هرون في البخل وهي من ابلغ وامتع وانفس ما كتب في هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من الفكاهات الطلية والاماليح التي

تدور حول البحث ، ولقد اضاف اليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو الكتاب من اراء سديدة في الاقتصاد والتدبير ، كل ذلك بأسلوب رشيق يستهوي القاريء .

٤ — كتاب المحاسن والاضداد: كتاب حسن جمع الجاحظ فيه نحو ثمانين موضوعاً متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلا يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا الى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت، وجميع المواضيع التي عالجها ذات بال . كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن واضدادها . وقد صرح الجاحظ في المقدمة بانه لم يسبق الى هذا الكتاب بقوله: « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والاضداد لم اسبق الى نحلته ولم يسألني احد صنعه » والكتاب من اكثر كتب الجاحظ تنسيقا وترتيبا واشدها مراعاة لحسن التبويب وضم كل معنى الى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقي فالف كتابا سماه المحاسن والمساوي .

٥ — كتاب التاج في اخلاق الملوك: يبحث عما يتعلق بامور الملوك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما الى ذلك من احوالهم العامة

والخاصة، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم في الحضارة . وما اظن ان رسوم اعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

٦ — **الفصول المختارة من كتب الجاحظ** : وهو كتاب اختاره عبيد الله بن حسان من عشرين كتابا للجاحظ وهذه اسماؤها: كتاب الحاسد والمحسود، كتاب المعلمين، كتاب التربيع والتدوير، كتاب مدح النبيذ، كتاب طبقات المغنين، كتاب النساء، كتاب مناقب الترك، كتاب حجج النبوة، كتاب مسائل القرآن، « وفيه بحث عن خلق القرآن » كتاب الرد على النصارى، كتاب المودة والخلطة، كتاب استحقاق الامامة، كتاب استنجاز الوعد، كتاب تفضيل النطق على الصمت، كتاب صناعة الكلام، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان، كتاب الشارب والمشروب، كتاب الامامة، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

٧ — ثلاث رسائل للجاحظ هي : الرد على النصارى التي مر ذكرها مع الفصول المختارة، ذم اخلاق الكتاب، رسالة القيان .

٨ - الحنين الى الاوطان ٠

٩ - احدى عشره رسالة طبعت في مصر ذكرا اكثرها في الفصول المختارة ومالم يذكر منها هو : فخر السودان على البيضان ، كتاب الوكلاء والموكلين ٠

١٠ - رسالة في بني امية : وقد سماها بعضهم رسالةالنابتة ٠

١١ - كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من الادلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم واسلوبه عال ولكنه باسلوب الحكماء اشبه ٠

١٢ - كتاب المناظرة بين الربيع والخريف : نسب للجاحظ وانا اشك كثيرا في كونه من كلامه بل اقطع بانه منحول لبعده عن اسلوب الجاحظ

١٣ - كتاب تهذيب الاخلاق : نسب للجاحظ وليس له ٠

هذه هي الكتب المطبوعة من تصانيف الجاحظ ٠ اما كتبه المخطوطة فقليل منها محفوظ في بعض دور الكتب العامة مثل كتاب تنبيه الملوك والمكائد ، وكتاب سحر البيان ، في مكتبة كوبرلي بالقسطنطينية ، وكتاب العرافة والزجر والفراسة على

مذاهب الفرس في مكتبة ليدن، و كتاب المختار من كلام الجاحظ في مكتبة برلين .

والقسم الاعظم من كتبه المخطوطة لايعلم محل وجودها وانما نورد اسماءها نقلا عن معجم الادباء لياقوت بعد اسقاط ماسبقت الاشارة اليه وهي : كتاب الزرع والنخل ، اهداه الجاحظ الى ابراهيم بن العباس الصولي فاعطاه خمسة الاف دينار ، كتاب النبي والمتنبي ، كتاب المعرفة ، كتاب مسائل المعرفة ، كتاب جوابات المعرفة، كتاب الرد على اصحاب الالهام، كتاب نظم القرآن، كتاب فضيلة المعتزلة، كتاب الرد على المشبهة ، كتاب حكاية اصناف الزيدية، كتاب العثمانية، كتاب الاخبار وكيف تصح، كتاب عصام المريد ، كتاب الرد على العثمانية ، كتاب امامة معاوية ، كتاب امامة بني العباس ، كتاب الفتيان ، كتاب القواد ، كتاب اللصوص ، كتاب المخاطبات في التوحيد، كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمين ، كتاب وجوب الامامة ، كتاب الاصنام ، كتاب افتخار الشتاء والصيف ، كتاب الجواري ، كتاب نوادر الحسن ، كتاب الفخر مابين عبد شمس ومخزوم ، كتاب العرجان والبرصان، كتاب فخر القحطانية والعدنانية، كتاب الطفيليين ،

كتاب الفتيا (١) ، كتاب الرد على اليهود ، كتاب الصرحاء والهجناء ، كتاب المعاد والمعاش ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان واخلاق اهله ، كتاب الوعيد ، كتاب البلدان ، كتاب الاخبار ، كتاب الدلالة على ان الامامة فرض ، كتاب الاستطاعة وخلق الافعال ، كتاب المقينين والغناء والصنعة ، كتاب الهدايا ، «منحول» كتاب الاخوان ، كتاب الرد على من الحد في كتاب الله عز وجل ، كتاب آي القرآن ، كتاب الناشي والمتلاشي ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب المزاح والجد ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب الصوالجة ، كتاب ذم الزنا ، كتاب التفكر والاعتبار (٢) ، كتاب الحجر والنبوة ، كتاب آل ابراهيم بن المدبر في المكاتبة ، كتاب احالة القدرة على الظلم ، كتاب امهات الاولاد ، كتاب الاعتزال وفضله عن الفضيلة ؟

(١) ورد في كتاب الفرق بين الفرق أن هذا الكتاب مشحون بطعن النظام على اعلام الصحابة .

(٢) لعله كتاب الدلائل والاعتبار الذي سبقت الاشارة اليه عند الكلام على كتب الجاحظ المطبوعة .

كتاب الاخطار والمراتب والصناعات ، كتاب احدوثة العالم ، كتاب الرد على من زعم ان الانسان جزء لا يتجزأ ، كتاب ابي النجم وجوابه ، كتاب التفاح ، كتاب الانس والسلوة ، كتاب الكبر المستحسن والمستقبح ، كتاب نقض الطب ، كتاب الحزم والعزم ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب تحصين الاموال ، كتاب الامثال ، كتاب فضل الفرس على الهملاج ، كتاب الرسالة الى ابي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الاولياء ، كتاب رسالة ابي النجم في الخراج ، كتاب رسالته في القلم ، كتاب رسالته في فضل اتخاذ الكتب ، كتاب رسالته في كتمان السر ، كتاب رسالته في ذم النبيذ ، كتاب رسالته في العفو والصفح ، كتاب رسالته في اثم السكر ، كتاب رسالته في الامل والمأمول ، كتاب رسالته في الحلية ، كتاب رسالته في مدح الكتاب ، كتاب رسالته في مدح الوراق ، كتاب رسالته في ذم الوراق ، كتاب رسالته في من يسمى من الشعراء عمرا ، كتاب رسالته في اليتيمة ، كتاب رسالته في فرط جهل يعقوب ابن اسحق الكندي ، كتاب رسالته في الكرم ، كتاب رسالته في موت ابي حرب الصفار البصري ، كتاب رسالته في الميراث ،

كتاب الاسد والذئب ، كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب ، كتاب رسالته في القضاة والولاة ، كتاب الملوك والامم السالفة والباقية، كتاب رسالته في الرد على القولية ، كتاب العالم والجاهل، كتاب النرد والشطرنج، كتاب غش الصناعات، كتاب خصومة الحول والعور، كتاب ذوي العاهات ، كتاب اخلاق الشطار .

فانت ترى ان الرجل الف في الدين والعلم والادب والاجتماع والاقتصاد والحيوان والنبات وعالج كل فن من الجد والهزل وعدد تصانيفه عظيم جداً بين مختصر ومطول ولكن القسم الاعظم منه فقد ولا يزال مجهولا

اتهامه في دينه

قل في النابغين من سلم من التهمة في دينه لا سيما في عصر كعصر الجاحظ كثرت فيه الفرق والمذاهب بما دخل على العرب من الفلسفة الهندية والفارسية والاغريقية ، وكثر فيه الجدل في اصول الدين . وقلما تجادل شخصان ولم يرم كل منهما صاحبه بالمروق .

والجاحظ كما علمت متكلم مناظر مرن على الجدل والحجاج ، وهو فوق ذلك صاحب مقالة في المعتزلة ومذهبه في الكلام اقرب الى مذهب الفلاسفة ، اضف الى ذلك ظرفه ودعابته وما ينشأ عن ذلك من تهكم لاذع يوري نار الحفيظة في قلب الخصم . ذلك او

بعضه كاف لحمل خصماء الجاحظ على رميه بالزيغ والمروق ·

اتهم الجاحظ في عدالته فرمي بالكذب في رواية الحديث ، قال ابن عساكر قال ابو العيناء : « انا والجاحظ وضعنا حديث فدك وادخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه الا ابن شيبة العلوي فانه قال لا يشبه اخر هذا الحديث اوله فابى ان يقبله » قال وكان ابو العيناء يحدث بهذا بعد ما تاب ·

ورمي بالتهاون بالصلاة ، قال ابن عساكر : حدث ابن ابي الدنيا المحدث بسرمن رأى قال : حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ · فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : اني ماصليت لمذهب او لسبب اخبرك به ، فقال له : ما اظن ان لك مذهبا في الصلاة الا تركها ·

وحدث ابو العيناء قال قال الجاحظ : كان الاصمعي منانياً فقال له العباس بن رستم : لا والله ولكن تذكر حين جلست اليه تسأله فجعل ياخذ نعله بيده وهي مخصوفة بحديد و يقول : نعم قناع القدري · فعلمت انه يعنيك ·

وقد مر بك ان ابن ابي دواد قال : انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ·

ولما عد الجاحظ بعض الزنادقة قالوا نسي الجاحظ نفسه ·
وقال الجماز فيه :

يافتى نفسه الى الـ كفر بالله تائقــة
لك في الفضل والتزهـ ـد والنسك سابقة

ولم يقفوا عند هذا الحد بل رموه بالكيد للاسلام والمسلمين ·
قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث « قال ابو محمد :
ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين
واحسنهم للحجة استثارة واشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم
وتصغير العظيم حتى يصغر ويبلغ به الاقتدار الى ان يعمل الشيء
ونقيضه ويحتج بفضل السودان على البيضان وتجده يحتج مرة
للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية على العثمانية واهل السنة ومرة
يفضل عليا رضي الله عنه ومرة يؤخره · ويقول قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل بن غزوان كذا
وكذا من الفواحش · ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ان
يذكر في كتاب ذكرا فيه فكيف في ورقة او بعد سطر او
سطرين ·

ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا

صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه انما اراد تنبيهم على مالا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين ·

وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ · و يستهزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على اهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الاسود وانه كان ابيض فسوده المشركون و كان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا · ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فاكلتها الشاة ، واشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهدهد امه في رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة واشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ان شاء الله · وهو مع هذا من اكذب الامة واوضعهم لحديث وانصرهم لباطل · ومن علم رحمك الله ان كلامه من عمله قل الا فيما ينفعه ، ومن ايقن انه مسوءل عما الف وعما كتب لم يعمل الشيء وضده · ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده · وانشدني الرياشي :

ولا تكتب بخطك غير شيء　　يسرك في القيامة ان تراه

وقال ابو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتابه

الفرق بين الفرق : « . . . فمن ضلالاته «الجاحظ» المنسوبة اليه ما حكاه الكعبي عنه في مقالاته مع افتخاره به من قوله : ان المعارف كلها طباع وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم . قالوا ووافق ثمامة في ان لا فعل للعباد الا الارادة وان سائر الافعال تنسب الى العباد على معنى انها وقعت منهم طباعا وانها وجبت بارادتهم . قال وزعم ايضا انه لا يجوز ان يبلغ احد فلا يعرف الله تعالى . والكفار عنده من معاند ومن عارف قد استغرقه حبه لمذهبه فهو لا يشكر ه عنده من المعرفة بخالقه و يصدق رسله . فان صدق الكعبي على الجاحظ في ان لا فعل للانسان الا الارادة لزمه ان لا يكون الانسان مصليا ولا صائما ولا حاجا ولا زانيا ولا سارقا ولا قاذفا ولا قاتلا لانه لم يفعل صلاة ولا صوما ولا حجا ولا زنى ولا سرقه ولا قتلا ولا قذفا . لان هذه الافعال عنده غير الارادة واذا كانت هذه الافعال التي ذكرناها عنده طباعا لا كسبا لزمه ان لا يكون للانسان عليها ثواب ولا عقاب لان الانسان لا يثاب ولا يعاقب على مالا يكون كسباله كما لا يثاب ولا يعاقب على لونه وتركيب بدنه اذا لم يكن من كسبه »

هذا ما استنتجه البغدادي وما كنا لنأبه لهذا الاستنتاج لولا

جملة قالها الجاحظ يشتم منها رائحة الاباحية هذا نصها نقلا عن معجم الادباء لياقوت : « قال الجاحظ مرة بحضرة السدري : اذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت .... فقال له السدري وكيف ؟ قال لانها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب وتختار على عينها من تريد والتوبة معروضة لها متى شاءت . فقال له السدري فكيف عقل العجوز حفظك الله ؟ قال هي احمق الناس واقلهم عقلا »

على ان ذلك قد يحمل على محمل الهزل والدعابة . ومهما يكن فالجاحظ امام من ائمة المسلمين له اراء انفرد بها في الكلام ومذهبه في ذلك التوفيق بين العقل والنقل ولا يضره بعد ذلك لوم المخالفين .

شعره

نظم الجاحظ كثيرا اذا اعتبرنا شعره ركنا من اركان عبقريته او جزءاً من اجزاء ادبه ، ونضل اذا عددناه دليلا من ادلة عظمته . لان الجاحظ لم يخلق شاعرا وانما نظم الشعر كما نظمه غيره من العلماء والكتاب واللغويين والفقهاء والمؤلفين ، وتلك ظاهرة في الثقافة العربية عمت بلواها جميع من تذوق طعم العربية .

خذ اي كتاب من كتب التراجم وارجع الى ترجمة اي رجل شئت ، فقيها كان او محدثا فيلسوفا او طبيبا فانك واجد في

اعقب ترجمته « ومن شعره قوله » .

هذا النوع من الشعر يمكن تقسيمه الى ثلاثة اقسام شعر الكتاب وشعر العلماء وشعر الفقهاء . فلاول يكنى به عن حسن الصنعة واختيار الالفاظ وانسجام النظم كشعر ابن العميد والصاحب بن عباد . والثاني يكني به عن جمع الامثال ومعالجة الحقائق العلمية وما وراء الطبيعة كشعر ابن دريد وابن سينا . والثالث يكنى به عن الغثاثة والبرودة .

اما شعر الجاحظ فمن النوع الاول ، وما اظن الباعث على نظمه الاخيلاء العلم والادب . يعني ان سعة روايته للشعر وغزارة مادته في الادب ورسوخ قدمه في العلم وقوة طبعه في النثر زين له نظم الشعر وان لم يكن شاعرا ، وهكذا قل في اكثر الكتاب .

فمن شعره قوله :

يطلب العيش ان تلاقي حليما

غذاه العلم والرأي المصيب

ليكشف عنك حيرة كل ريب

وفضل العلم يعرفه الاريب

سقام الحرص ليس له شفاء وداء البخل ليس له طبيب

وانشد المبرد للجاحظ :

ان حال لون الرأس عن لونه
ففي خضاب الرأس مستمتع
هب من له شيب له حيلة
فما الذي يحتاله الاصلع

ومن شعره في ابن ابي دواد :

وعويص من الامور بهيم غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توعر منه بلسان يزينه التحبير
مثل وشي البرود هلهله النسج وعند الحجاج در نثير
حسن الصمت والمقاطع اما نصت القوم والحديث يدور
ثم من بعد لحظة تورث اليسر وعرض مهذب موفور

وقال يهجو الجماز بابيات منها :

نسب الجماز مقصور اليه منتهاه
تنتهي الاحساب بالناس ولا تعدو قفاه

وقال يمدح ابراهيم بن رباح :

بدا حين اثرى باخوانه ففلل عنهم شباة العدم

وذكره الدهر صرف الزمان فبدر قبل انتقال النعم
فتى خصه الله بالمكرمات فمازج منه الحيا بالكرم
ولا ينكث الارض عند السؤال ليقطع زواره عن نعم

وكتب الى احمد بن ابي دواد :

لا تراني وان تطاولت عمدا بين صفيهم وانت تسير
كلهم فاضل علي بمال ولساني يزينه التحبير
فاذا ضمنا الحديث وبيت وكأني على الجميع امير
رب خصم ارق من كل روح ولفرط الذكا يكاد يطير
فاذا رام غايتي فهو كاب وعلى البعد كوكب مبهور

وله :

بخدي من قطر الدموع ندوب وبالقلب مني مذ نأيت وجيب
ولي نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولي شاهد من ضر نفسي وسقمها يخبر عني انني لكئيب
كأني لم افجع بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

وقال في ابراهيم بن رباح :

وعهدي به والله يصلح امره رحيب مجال الرأي منبلج الصدر

فلا جعل الله الولاية سبة ... عليه فني بالولاية ذو خبر
فقد جهدوه بالسؤال وقد ابى ... به المجد الا ان يلج ويستشري

وقال في ابي الفرج نجاح بن سلمة يسأله اطلاق رزقه من قصيدة :

اقام بدار الخفض راض بخفضه
وذو الحزم يسري حين لا احد يسري
يظن الرضى شيئاً يسيراً مهوناً
ودون الرضى كأس امر من الصبر
سواء على الايام صاحب حنكة
وآخر كاب لا يريش ولا يبري
خضعت لبعض القوم ارجو نواله
وقد كنت لا اعطي الدنية بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بشره
ويجعل حسن البشر واقية الوفر
ربعت على ضلعي وراجعت منزلي
فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وشاورت اخواني فقال حليمهم
عليك الفتى المري ذا الخلق الغمر

اعيذك بالرحمن من قول شامت
ابو الفرج المأمول يزهد في عمرو
ولو كان فيه راغبا لرأيته
كما كان دهرا في الرخاء وفي اليسر
اخاف عليك العين من كل حاسد
وذو الود منخوب الفؤاد من الذعر
فان تدع ودي بالقبول فاهله
ولا يعرف الاقدار غير ذوي القدر

ومن شعره :

لئن قدمت قبلي رجال فطالما
مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه
فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

درس وتحليل

زمن الجاحظ : عوامل نبوغه : مواهبه . قيمة ادبه واثره .

ليس عجيبا ان ينبغ مثل الجاحظ في زمن الجاحظ ، فانه عاش في ازهر عصر من العصور الاسلامية ، ودرج من البصرة عش اللغة والادب ، وقضى شطرا طويلا من حياته في بغداد عاصمة ذلك الملك الكبير واعظم مراكز العلم والادب .

شب الجاحظ في زمن الرشيد ، ذلك الخليفة العظيم الذي كان يجل العلماء ويقربهم ، ويجالس الشعراء ويجود عليهم . ونبغ في ايام المأمون اعلم الخلفاء واشدهم انتصارا للحرية الفكرية ، واكثرهم تقديراً للعلم واهله .

في ذلك العصر الذي يبتدئ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ وينتهي بوفاة الواثق سنة ٢٣٢ ، كانت الحضارة الاسلامية في ازهى عصورها ، قائمة على الاسس القوية التي جاء بها الاسلام ومحافظة على المروءة العربية مع اقتباس حكيم من حضارة الفرس واليونان .

في ذلك الزمن نبغ ائمة الدين الاربعة مالك وابو حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل ، وفيه نبغ الفيلسوف الكندي ، ونبغ

من ائمة اللغة والادب الخليل بن احمد والاصمعي وسيبويه ، ومن كبار الشعراء بشار بن برد وابو نواس وابو تمام الطائي . فلا ذا لا ينبغ مثل الجاحظ في الفصاحة واللسن والانشاء في مثل ذلك الوسط الخصيب .

تقدم الجاحظ وعصره كتاب اجلاء مثل ابن المقفع وعمرو ابن مسعدة واحمد بن يوسف والصولي وابن الزيات ، ولكن واحداً منهم لم يتح له ان يكون كاتب ذلك العصر ، ينفذ الى كل ناحية من نواحيه ، ويصور اخلاق اهله اصدق تصوير ، فبقي المكان فارغا حتى شغله الجاحظ .

اذا كان مقياس العبقرية في الادب فهم الطبيعة البشرية وحسن التعبير عنها ، واذا كان مقياس نبوغ الاديب شدة ملاحظته وعمق تفكيره وكثرة توليده ، واذا كان معيار الادب تصوير الحياة تصويرا فنيا ، فالجاحظ اكبر كتاب العربية من هذه الجهات الثلاث وصاحب الحق في ان يكون كاتب عصره .

عاش الجاحظ في عصر كثرت فيه الفرق الدينية وفشت الآراء الفلسفية وتواثبت النعرات القومية وختلفت الاهواء السياسية ، فخاض في ذلك العباب وكتب في التوحيد والقرآن

والمعتزلة والعثمانية والزيدية والرافضة . وكتب في التسوية بين العرب والعجم وفي القحطانية والعدنانية وفي الترك وفي البيضان والسودان . وكتب في بني امية وبني العباس .

وسرت الروح العلمية في شتى المواضيع فكتب في الحيوان والنبات والاقتصاد والطب والكيمياء .

واظل القوم في ذلك الزمن حضارة وارفة الظلال فتأنقوا في الملبس والمركب والمأكل والمشرب ومالوا الى الدعة واللهو واقتنوا حسان الاماء وولعوا بالشراب والغناء ، فكتب في النرد والشطرنج والجواري والقيان والغناء والمغنين والنبيذ وفضل الفرس على الهملاج .

ونتج عن ذلك ما ينتج عادة من مفاسد المدنيه فظهر الغش وفشت الدعارة والعهر وكثرت اللصوص والشطار وكثرت الحانات ، فكتب في غش الصناعات وذم النبيذ وذم الزنا واثم السكر وحيل اللصوص واخلاق الشطار .

ومن هنا رمي الجاحظ بالتناقض واتهم بالتذبذب ، وفات منتقديه ان شأنه فيما كتب شأن المصور لا يلام اذا صور انسانا كما هو بل يلام اذا اغفل شيئا من تقاطيعه وملامحه .

نعم انك كثيرا ما تجد للجاحظ رأيا في قضية ثم تجد له رأيا مناقضا للاول ، ولعل منشأ ذلك حكاية آراء الناس سلبا وايجابا ، او ان الرجل تعمق في فهم حقائق الاشياء حتى بلغ غاية حالت بينه و بين الجزم في الرأي ، او انه هازيء بالآراء ساخر بالنظريات ينقض اليوم ماابرمه بالامس ٠

لا يركن الجحظ الى الخيال ولا يهيم في الاحلام الشعرية ، ولذلك ندرت في كتابته الاستعارة والكناية والتشبيه والمجاز ، فهو غني بصادق بيانه عن الاستعانة بعكاكيز البلاغة ٠ ولكنه مع ذلك غير ملهم في المواضيع الشعرية ، اعطي جميع مواهب الكاتب الخلقية والكسبية ، واخطاه من مواهب الشاعر الخيال والاوهام والاحلام ٠ وسرعة الملاحظة وحدة الفطنة في الكاتب — وله منها اوفر نصيب — تقومان مقام الخيال والالهام عند الشاعر ٠

فسح الجاحظ للنثر العربي مجالا واسعا فمهد سبل التأليف في كثير من العلوم والفنون ومزج خشونة العلم بنعومة الادب وافتن في التهكم والدعابة ٠

سحر الجاحظ مبني على خفة روحه اولا ، واطلاعه على

العقائد والمذاهب ثانيا ، ودرسه اخلاق الناس ثالثا . يطلب النكتة للاحماض ويرسلها هزوءا بخرافات بعض الناس وعاداتهم ومواضعاتهم ومصطلحاتهم .

ما اظن ان اديبا من العرب ادرك الغاية من الادب كما ادركها الجاحظ . فالادب الذي لا يمثل لك عصر صاحبه هو ناقص . واي ادب ادق تمثيلا واحسن تصويرا لزمان صاحبه من ادب الجاحظ ؟

لو توفر اديب عصري على دراسة البقية الباقية من كتب الجاحظ لامكنه ان يستخلص منها تاريخا مدنيا لذلك العصر المبارك ، فضلا عن القصص والروايات التي تمثل حياة القوم اذ ذاك في اخلاقهم ومجالسهم وملابسهم ومذاهبهم الدينية والسياسية وجدهم وهزلهم وما الى ذلك من وجوه حياتهم . وما ذلك الا لان الجاحظ عرف زمانه واهله فمثلهما اصدق تمثيل وتلك من اكبر مزاياه التي تفرد بها .

. . . . . .

كان النقد في ادبنا لا يعدو صحة اللفظ وحسن الصياغة ، وعلى هذه القاعدة انتقدت كتب الجاحظ واعطى الرجل حقه

من الاكبار وسكت عما سوى ذلك . على انني ارى ان الجاحظ في مواضيعه التي عالجها اعظم منه في سمو اسلوبه وعذوبة لغته ، فانه حاول ان يكتب عن كل شيء رآه او وعاه او سمع به وكان موفقاً فيما حاول .

ليس في مواضيع الجاحظ عناصر خيالية بل هي حقائق ملموسة يعمد اليها ببصيرة نافذة وفكر متوقد وفهم دقيق فيفصح عنها بافصح لغة واروع اسلوب فيجعلها محببة الى القارىء ، وذلك هو الادب الحق يصدقك ويسرك .

فطر الجاحظ على دقة الملاحظة وهي تستدعي التقصي والاسهاب والاحاطة وحسن الوصف ، ورأى أن كل ما في هذه الحياة يستحق العناية والبحث - جدا او هزلا فتناول مواضيع متناقضة ، وطرق ابوابا لا يطرق عادة مثلها مثله ، وعالج امورا قد تبدو لاول وهلة تافهة . فوفى كل بحث حقه وزاد وتطول .

نعم ان من بعض ارائه العلمية ما لا يقره العلم الحديث وا كثر ما تجد ذلك في كتاب الحيوان ، ولكن كم رأيا في العلم بقي مسلما به منذ احد عشر قرنا ؟ على ان كتاب الحيوان كتاب

ادبي اكثر منه علمي .

. . . . . .

جرت العادة في النقد العربي ان لا تعالج جهة الابتكار في الاديب الا اذا كان شاعرا ، وذلك لسهولة الاهتداء الى المعنى المبتكر في الشعر العربي خاصة ، اذ ان كل بيت منه وحدة مستقلة ذات معنى قائم بنفسه ، فالعين نحوه اسرع والفكر اليه اهدى . وليس الشأن كذلك في النثر فقد يكون الابتكار النثري في فكرة وقد يكون في اختيار موضوع كما يكون في تبويبه او جمعه ، فاغفلوا بحث الابتكار في الكتاب ، وذلك من نواقص نقدنا ، والجاحظ مبتكر في الانشاء من حيث الاسلوب والمواضيع ، فكل كتاب من كتبه حدث مبتكر بل فتح مبين في ادبنا ، ورسائله في ممتع البحوث معان ابكار ما افترعها احد قبله .

لم يكن الجاحظ من اولئك العلماء الذين تنازلوا عن حقهم في التدبر والتفكير فنظروا الى المسائل من جهة واحدة بل كان ابعد نظرا وارجح رأيا يرى للقضية الواحدة عدة وجوه فيعالجها جميعها بروية وامعان من غير ان يحرج بها صدره او تضيق بها نفسه .

عاش الجاحظ في وسط نجم فيه قرن الشعوبية والكيد للعرب في دينهم وسلطانهم وتاريخهم فخاض هذه الغمرة وعالج احداثها بما عرف عنه من الاستقصاء والتعمق، ولكن هواه كان مع العرب يرى تفوقهم بالكرم والمروءة والانفة والحمية ومنع الجار واباء الضيم لا سيما في الشعر والخطابة .

يرى المثل الاعلى في البلاغة شعر العرب ويفضله على بلاغة سائر الامم لانه جرى على السنتهم من غير تعمل ولا تكلف . اما كلام النبي فهو جوامع الكلم فيه عبقة من الوحي الالهي محفوف بالعصمة والتأييد وهو الحكمة وفصل الخطاب . وسيمر بك شواهد على كل ذلك من كلام الجاحظ

. . . . . .

كان الجاحظ من المعجبين بابن المقفع وهو الذي نوه بذكره ودل على فضله . ولكنه لم يشأ ان يسلك طريقته في الادب ، لان الجاحظ رأى افق الادب اوسع من ان يقصر على حكم ومواعظ تستقيم في النظر و يلتوي اكثرها في العمل ، فمد بصره الى اوسع من ذلك ورأى ان الادب يتناول الحماقة كما يتناول الحكمة ، لانه مرآة الحياة نعيمها وكدها ، هزلها وجدها ، وحكمتها

وسخافتها الى آخر ما تشتمل عليه الحياة من المتناقضات فكتب ما كتب من شتى المواضيع ومختلف الابحاث .

وكذلك فانه لم ير حاجة لاختراع الاشخاص الخيالية واصطناع الاوضاع القصصية لتقريب المعاني الى الافهام واساغتها في الاذواق ، شأن اصحاب المقامات من بعده . بل غشاها من ساحر بيانه بما جعلها فتنة القلوب والاسماع . والغريب ان اصحاب المقامات في قصصهم قصروا عن الجاحظ كثيراً في الترجمة عن الطبائع وتصوير الاخلاق مع انهم نصبوا انفسهم لهذا الغرض

. . . .

لم يبخس الجاحظ بقية الامم حقها في العلم ولكنه كان يعتقد ان العربية اذ ذاك اغنى اللغات علما وادبا تفي بحاجة كل طالب في كل فن قال : « قل معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدنا قريبا منه في اشعار العرب وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا »

ويزيد على ذلك انه كان يرى ان الحذق في غير العربية ينقص فصاحة العربية ويتخون محاسنها لان النبوغ في لغتين متعذر قال : « ومتى وجدناه — الترجمان — قد تكلم بلسانين علمنا

انه قد ادخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها وتعترض عليها فكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة »

ومن هنا نعلم انه لم يكن يرى روعة البلاغة في الآداب المترجمة ، وذلك رأي جمهرة العرب الذين اقبلوا على ترجمة انواع العلوم ورضوا بالاخذ عن غيرهم الا في الشريعة والادب فانهم كانوا مؤمنين بان شريعتهم اكمل الشرائع وادبهم ارفع الآداب ولغتهم ابلغ اللغات ٠

هذا فصل اذا اضيف الى ما تقدمه من الفصول واضيف اليه امثلة وشواهد من كلام الجاحظ — وستراها بعد اسطر — امكن ان يعطيك فكرة عامة ويمثل لك صورة مجملة عن الجاحظ وسيرته وادبه واثره ٠

نصوص من كلام الجاحظ

اللسان

هو اداة يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وحاكم يفصل الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومعز يرد الاحزان ، ومعتذر يرفع الضغينة ، وملهٍ يونق الاسماع ، وزارع يحرث المودة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومادح يستحق الالفة ، ومؤنس يذهب الوحشة .

العقل

ليس على ظهرها انسان الا معجب بعقله ، لا يسره ان له بجميع ماله مالغيره . ولولا ذلك لماتوا كمدا ولذابوا حسدا . ولكن كل انسان وان كان يرى انه حاسد في شيء ، فهو يرى انه محسود في شيء .

الكلام البليغ

ومتى شاكل — ابقاك الله — اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمنا بحسن الموقع ، وحقيقا بانتفاع المستمع ، وجديرا ان يمنع صاحبه من تأول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ ايضا كريما في نفسه ، متخيرا من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الاسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض . ومن اعاره من معرفته نصيبا ، وافرغ عليه من محبته ذنوبا ، خبت اليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع عن كد التكلف ، واراح قارئ الكتاب من علاج التفهم .

كلام النبي

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب اصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، والقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام والايجاز . ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطيء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط اعم نفعا ، ولا اصدق لفظا ، ولا اعدل وزنا ، ولا اجمل مذهبا ، ولا اكرم مطلبا ، ولا احسن موقعا ، ولا اسهل مخرجا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جوامع كلمه

يجب للرجل ان يكون سخيا لا يبلغ التبذير، شجاعا لا يبلغ الهوج، محترسا لا يبلغ الجبن، ماضيا لا يبلغ القحة، قوالا لا يبلغ الهذر، صموتا لا يبلغ العي، حليما لا يبلغ الذل، منتصرا لا يبلغ الظلم، وقورا لا يبلغ البلادة، ناقدا لا يبلغ الطيش. ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله: « خير الامور اوساطها » فعلمنا انه صلى الله عليه وسلم قد اوتي جوامع الكلم وعلم فصل الخطاب.

سحر البيان

قال بعض الربانيين واهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق، ويبغض الاغراق في القول والتكلف والاجتلاب ويعرف اكثر ادواء الكلام ودوائه وما يعتري المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن مايسمع: انذركم حسن الالفاظ وحلاوة مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظًا حسنا واعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه

المتكلم قولا متعشقا، صار في القلب احلى ، وللصدر املاء . والمعاني اذا كسيت الالفاظ الكريمة ، والبست الاوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، واربت على حقائق اقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوي ومدخل خدع الشيطان خفي .

عدوى الاسفاف

اعلم ان المعنى الحقير الفاسد ، واللفظ الساقط يعشش في القلب ، ثم يبيض ثم يفرخ ثم يستفحل الفساد . لان اللفظ الهجين الردي ، علق باللسان ، وآلف للسمع ، واشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم . ولو جالست الجهال والحمقى والسفهاء شهراً فقط ، اكتسبت من اوضار كلامهم . وخبال معانيهم ما لم تكتسبه من مجانسة اهل البيان دهرا . لان الفساد اسرع الى الناس ، واشد التحاما بالطبائع . والانسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، يجود لفظه ويحسن ادبه . وهو لا يحتاج في الجهل الى اكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى اكثر من ترك التخير .

العفو

من انتقم فقد شفى غيظ نفسه، واخذ اقصى حقه ، واذا انتقمت، فقد انتقصت، واذا عفوت تطولت . ومن اخذ حقه وشفى غيظه، لم يجب شكره، ولم يذكر في العالمين فضله . وكظم الغيظ حلم، والحلم صبر ، والتشفي طرف من العجز . ومن رضي ان لا يكون بين حاله وحال الظالم الا ستر رفيق، وحجاب ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم . ولم تر اهل النهى، والمنسوبين الى الحجى والتقى، مدحوا الحكام بشدة العقاب . وقد ذكروهم بحسن الصفح ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل .

وبعد فالمعاقب مستعد لعداوة اولياء المذنب ، والمعافي مستدع لشكرهم ، آمن من مكافأتهم اياه قدرتهم .

ولان يثنى عليك باتساع الصدر ، خير من ان يثنى عليك بضيق الصدر ، على ان اقالتك عثرة عباد الله، موجب لاقالتك عثرتك من رب عباد الله ، وعفوك عنهم ، موصول بعفو الله عنك، وعقابك لهم موصول بعقاب الله لك ، والموت الفادح ، خير من اليأس الفاضح .

بلاغة العرب

كل شيء للعرب فانمـا هو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة وانمـا هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين ان يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعه والمناقلة اوعند صراع او في حرب . فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احداً من ولده وكانوا اميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم اظهر وا كثر وهم عليه اقدر واقهر وكل واحد في نفسه انطق ومكانه في البيان ارفع . وخطباؤهم اوجز والكلام عليهم اسهل وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ اويحتاجوا الى تدارس وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب . وان شيئا الذي في ايدينا جزء منه ، لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من

احاط بقطر السحب وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن — ابقاك الله — اذا ادعينا للعرب اصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم على ان ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع اشعر الناس اليوم ولا ارفعهم في البيان ان يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنبذ القليل ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في ايدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وابي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير .

واخرى انك متى اخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الاعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، او خطيب مصقع ، علم ان الذي قلت هو الحق ، وابصر الشاهد عيانا .

فهذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عني — فهمك الله —

ما انا قائل في هذا ، واعلم انك لم تر قوما قط اشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا اعدى على دينه ،ولا اشد استهلاكا لعرضه ، ولا اطول نصبا ، ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا اخلاق كل ملة ، وزي كل لغة ، وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ولم تكلفوه ، لاراحوا انفسهم ، وتخففت مؤناتهم على من خالطهم .

البكاء

البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبة اذا وافق الموضع ، ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة . ودليل على الرقة ، والبعد من القسوة ، وربما عد من الوفاء ، وشدة الوجد على الاولياء ، وهو من اعظم ما تقرب به العابدون ، واسترحم به الخائفون . قال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له : لا تجزع فانه افتح لجرمه ، واصح لبصره . وضرب عامر بن عبد قيس بيده

على عينه فقال : جامدة شاخصة لا تندى . وقيل لصفوان ابن محرز عند طول بكائه وتذكر احزانه : ان طول البكاء يورث العماء ، فقال: ذلك لها شهادة . فبكى حتى عمي . وقد مدح بالبكاء ناس كثير منهم يحيى البكاء وهيثم البكاء ، وكان صفوان ابن محرز يسمى البكاء .

الضحك

ما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور الى ان ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره (وانه هو اضحك وابكى وانه هو امات واحيى) فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص .

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شيء في اصل الطباع ، وفي اساس التركيب ، لان الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وقدتطيب

نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته . ولفضل خصال الضحك عند العرب ، تسمي اولادها بالضحاك وبسام وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا . واذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش الى الضيف وذو اريحية واهتزاز . واذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابدا وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح .

وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما احد ، وقصر عنهما احد ، صار الفاضل خطلا ، والتقصير نقصا . فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزح الا بقدر ، ومتى اريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً ، والضحك وقارا .

الكتاب (١)

الكتاب وعاء ملئ علما ، وظرف حشي ظرفا ، واناء شحن مزاحاً وجدا ، ان شئت كان ابين من سحبان وائل ، وان شئت كان اعيى من باقل ، وان شئت ضحكت من نوادره ، وان شئت عجبت من غرائب فوائده ، وان شئت الهتك طرائفه ، وان شئت اشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر ، وبناسك فاتك ، و بناطق اخرس .

ومتى رأيت بستانا يحمل في ردن ؟ وروضة تقلب في حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، و يترجم عن الاحياء . ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الارض ، واكتم للسر من صاحب السر ، واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة .

ولا اعلم جارا ابر ، ولا خليطاً انصف ، ولا رفيقا اطوع ، ولا معلما اخضع ، ولا صاحبا اظهر كفاية ولا اقل املالا وابراما

---

١ — هذا الفصل اوسع من ان تستوعبه هذه الرسالة فاخذنا منه ما يناسب المقام .

ولا اكثر اعجوبة وتصرفا ولا اقل تصلفا و تكلفا ولا ابعد من مراء من كتاب ·

ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه ، و قرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب ·

صامت ما اسكته وبليغ ما استنطقته ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك و يدعوك في اوقات نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه ·

والكتاب هو الذي ان نظرت فيه اطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك وجود بيانك وفخم الفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك · وعرفت به في شهر ، ما لا تعرفه من افواه الرجال في دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدي من انت افضل منه خلقا وا كرم

عرفا . ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الاغبياء .

قال ابن الجهم : « اذا غشيني النعس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة . تناولت كتابا من كتب الحكمة ، فوجد اهتزازي للفوائد ، والاريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة اشد ايقاظا من هدة الهدم .

واذا استحسنت الكتاب واستجدته ، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو تراني وانا ساعة بعد ساعة انظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قلبه . وان كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشي وكمل سروري »

فالانسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من ان تكون كتبه اكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الانفاق عليه من ماله الذ عنده من الانفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب الذ عنده من عشق القيان لم يبلغ في العلم مبلغا رضيا ، وليس ينتفع بانفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الاعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الاعرابي في فرسه .

سياسة الحزم

من لم يعمل باقامة جزاء السيئة و الحسنة ، وقتل في موضع القتل، واحيى في موضع الاحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، واعطى ساعة الاعطاء ، خالف الرب في تدبيره ، وظن ان رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل احياء للجميع ، وبعض العفو اغراء ، كما ان بعض المنع اعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضا، وشر منه من كان شره صرفا، ولكن اخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والاعطاء بالمنع، والحلم بالايقاع، فان الناس لا يهابون ولا يصلحون الا على الثواب والعقاب، والاطماع والاخافة . ومن اخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن اطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه، فخير الخير ما كان ممزوجا، وشر الشر ما كان صرفا

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل اولى بذلك الحكم . وفي اطباق جميع الملوك وجميع الائمة في جميع الاقطار وفي جميع الاعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على ان الصواب فيه دون غيره . واذا كان الناس انما

يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عد ذلك الشر خيرا ،وذلك المنع اعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وانما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو ادوم ومن الانقطاع ابعد .

الفاظ الزنادقة

الزنادقة اصحاب الفاظ في كتبهم واصحاب تهويل ، لانهم حين عدموا المعانى ولم يكن عندهم فيها طائل ؛ مالوا الى تكلف ما هو اخصر وايسر واوجز كثيرا . ولكل قوم الفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الارض وصاحب كلام منثور وصاحب كلام موزون ، فلا بد من ان يكون قد لهج والف الفاظا باعيانها ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعانى كثير اللفظ . فصار حظ الزنادقة من الالفاظ التى سبقت الى قلوبهم ، واتصلت بطبائعهم ،وجرت على السنتهم ،التناكح والنتائج والمزاج والنور والظلمة والدفاع والبقاع والساتر والغامر والمنحل والبطلان والوجدان والاثير والصداق وعمود الصبح ،واشكالا من الكلام نصا ، وان كان غريبا من فوضى ،مهجورا عند اهل ملتنا ودعوتنا

الصوت

امر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجب ، فمن ذلك ان منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتي يفرط عليها السرور فتقلق حتي ترقص ، وحتى ربما رمي الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل هذه الاغاني المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الاصوات الشجية والقراآت الملحنة ، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني لانهم في كثير من ذلك لا يفهمون وقد بكا ما سرجويه من قراءة ابي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال انما ابكاني الشجا .

وبالاصوات ينومون الصبيان والاطفال والدواب تصرا آذانها اذا غنى المكاري والابل تصر آذانها اذا حدا في آثارها الحادي وتزداد نشاطا وتزيد في مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له ، وذلك انهم يضربون بعصي معهم ويعطعطون فتقبل اجناس السمك شاخصة الابصار ، مصغية الى تلك لاصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطساس

الطير وتصاد به . ويضرب بالطست للاسد وقد اقبلت فتروعها تلك الاصوات . وقال صاحب المنطق : الايل تصاد بالصفير والغناء ، والصفير تسقى به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العرب

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا اطباء ولا حساباً ، ولا اصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا اصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلظ ؟ ، ولا العفن ولا التخم . اذهان حديدة ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف

---

(١) الغمق الفساد من كثرة الانداء واللثق نحوه

اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الاثر ، وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهممهم ارفع وهم من جميع الامم افخر ولايامهم اذكر .

الغناء

انا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ، المحيطين بالامور معرفة ذكروا ان اصول الآداب التي منها يتفرع العلم لذوي الالباب اربعة ، فمنها النجوم وبروجها وحسابها الذي يعرف به الاوقات والازمنة وعليها مزاج الطبائع وايام السنة ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير وما اشبه ذلك، ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعش وقوام الابدان وعلاج الاسقام وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة اجزائها وقسمها ومقاطعها ومخارجها واوزانها حتى تستوي على الايقاع وتدخل في الوتر .

ولم يزل اهل كل علم فيما خلا من الازمنة يركبون منهاجه ويسلكون طريقه ويعرفون غامضه ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله ، خلا الغناء فانهم لم يكونوا عرفوا علله واسبابه ووزنه وتصاريفه ، وكان علمهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية والهندية ، الى ان نظر الخليل البصري في الشعر ووزنه ومخارج الفاظه وميز ما قالت العرب منه وجمعه والفه ووضع فيه الكتاب الذي سماه العروض ، فلما احكم وبلغ منه ما بلغ اخذ في تفسير النغم واللحون فاستدرك منه شيئا ورسم له رسما احتذى عليه من خلفه واستمد من عني به . وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي اول من حذا حذوه وامتثل هديه ، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن احمد قبله ، منها معرفته بالغناء وكثرة استماعه اياه وعلمه بحسنه من قبيحه وصحيحه من سقيمه ومنها حذقه بالضرب والايقاع وعلمه بوزنهما . والف في ذلك كتبا معجبة ، وسهل له فيها ما كان مستصعبا على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل وحذق راجح ووزن صحيح وعلى اصل مستحكم له دلائل واضحة وشواهد عادلة ولم نر احدا وجد سبيلا الى الطعن عليه والعيب له . وصنع كثير من اهل زمانه اغاني كثيرة بهاجس

طبعهم والاتباع لمن سبقهم .

ثم قال في فصل آخر : وعلى ان الغناء من الوجه الحسن والبدن الحسن احسن ، والغناء الشهي من الوجه الشهي والبدن الشهي اشهى . وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة . وكم بين ان تفدي اذا شاع فيك الطرب مملوكك وبين ان تفدي امتك ، وكم بين ان تسمع الغناء من فم تشتهي ان تقبله وبين فم تشتهي ان تصرف وجهك عنه . وعلى ان الرجال دخلاء على النساء في الغناء كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فايما احسن واملح واشهى واغنج ؟ ان يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين او شيخ منخلع الاسنان مغضن الوجه ، ثم يغنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد

فاقبلت اسعى كالعجول ابادر

ام ان تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس او كأنها ياسمينة او كأنها خرطت من ياقوتة او من فضة مجلوة بشعر عكاشة ابن محصن :

من كف جارية كأن بنانها ... من فضة قد طوقت عنابا
وكأن يمناها اذا نطقت به ... القت على يدها الشمال حسابا

النبيذ

هو مستراح قلبك ومجال عقلك ومربع عينك وموضع انسك ومستنبط لذتك وينبوع سرورك ومصباحك في الظلام وشعارك من جميع الاقسام . وكيف وقد جمع ابهة الجلال ورشاقة الخلال ووقار البهاء وشرف الخير وعز المجاهدة ولذة الاختلاس وحلاوة الزبيب .

وسأصف لك شرف النبيذ في نفسه وفضيلته على غيره لان النبيذ اذا تمشى في عظامك والتبس باجزائك ودب في جنانك منحك صدق الحس وفراغ النفس ، وجعلك رخي البال واسع الذرع قليل الشواغل قرير العين واسع الصدر حسن الظن . ثم سد عليك ابواب التهم وحسن دونك الظن وخواطر الفهم وكفاك مؤونة الحراسة وألم الشفقة وخوف الحدثان وذل الطمع وكد الطلب وكل ما اعترض على السرور وافسد اللذة وقاسم الشهوة واخل بالنعمة . وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان

ويزيد الشبان في نشاط الصبيان، وليس يخاف شاربه الا مجاوزة السرور الى الاشر ومجاوزة الاشر الى البطر . ولو لم يكن من اياديه ومننه ومن جميل الائه ونعمه الا انك ما دمت تمزجه بروحك وتزاوج بينه وبين دمك فقد اعفاك من الجد ونصبه وحبب اليك المزاح والفكاهة وبغض اليك الاستقصاء والمحاولة وازال عنك تعقد الحشمة وكد المروءة وصار يومه جمالا لايام الفكرة وتسهيلا لمعاودة الروية لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر . مع ان جميع ما وصفناه واخبرنا به عنه يقوم بايسر الجرم واقل الثمن . ثم يعطيك في السفر ما يعطيك في الحضر وسواء عليك البساتين والجنان ويصلح بالليل كما يصلح بالنهار ويطيب في الصحو كما يطيب في الدجن ويلذ في الصيف كما يلذ في الشتاء ويجري مع كل حال، وكل شيء سواه فانما يصلح في بعض الاحوال، ويدفع مضرة الخمار كما يجلب منفعة السرور . وان كنت جذلا كان بارا بك وان كنت ذاهم نفاه عنك . يسر النفوس ويحبب اليها الجود ويزين لها الاحسان ويرغبها في التوسع ويورثها الغنى وينفي عنها الفقر ويملأها عزا ويعدها خيرا ويحسن المسارة ويصير به النبت خصبا والجناب مريعا وماهو لا معشب .

وليس شيء من المأكول والمشروب اجمع لظرفاء ولا اشد تألف للادباء ولا اجلب للمؤنسين ولا ادعى الى خلائق المتنعمين ولا اجدر ان يستدام به حديثهم ويخرج مكنونهم ويطول به مجلسهم منه . وان كل شراب وان كان حلا ورق وصفا ودق وطاب وعذب وبرد ونفح فان استطابتك لاول جرعة منه كثير ويكون من طبائعك اوقع ثم لا يزال في نقصان الى ان يعود مكروها وبلية الا النبيذ فان القدح الثاني اسهل من الاول والثالث ايسر والرابع الذ والخامس اسلس والسادس اطرب الى ان يسلمك الى النوم الذي هو حياتك واحد اقواتك . ولا خير فيه اذا كان اسكاره تغلبا واخذه بالرأس تعسفا حتى يميت الحس بحدته ويصرع الشارب بسورته ويورث البهر بسكطته ولا يسري في العروق لغلظته ولا يجري في البدن لركوده ولا يدخل في العمق ولا يدخل الصميم . ولا والله حتى يغازل العقل ويعارضه ويدعه ويخادعه فيسره ثم يبزه فاذا امتلأ سرورا وعد ملكا محبورا خاتله السكر وراوغه وداراه وماكره وهازله وغانجه وليس كما

يغتصب السكر (١) ويعتسف الذاذي (٢) ويفترس الزبيب ولكن بالتقتير والغمز والحيلة وتحبيب النوم وتزيين الصمت ·

ذم النبيذ

من مثالبه ان صاحبه يتكرهه قبل شربه ويكالح وجهه عند شمه ويستنقص الساقي من قدره ويعتبر عليه مكياله ويمزجه بالماء الذي هو ضده ليخرجه عن معناه وحده ثم يكرعه على المبادرة ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ليقل مكثه في فمه ويسرع على اللهوات اجتيازه · ثم لا يستوفي كميته ويرى ان يجعل عاقبة الشراب فضلة في قدحه ويشاح الساقي في المناظرة على ما بقي منه عند رده ليصرف عن نفسه عادية شربه ويذهب بساعته ويمنع من تهوعه ·

«١» السكر خمر التمر «٢» الذاذي نبت له حب كالشعير يوضع منه في الاناء فتعبق رائحته ويجود اسكاره قال الشاعر :

شربنا من الذاذي حتى كأننا ملوك لنا بر العراقين والبحر

امثلة من رسائل الجاحظ

كتب في الاعتذار

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الاصرار ، وان احق من عطفت عليه بحلمك ، من لم يستشفع اليك بغيرك . وانني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك ، وقد مسني من الالم ما لم يشفه غير مواصلتك .

☆ ☆ ☆

قال الجاحظ : تشاغلت مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ اياما فطلبني محمد بن عبد الملك (الزيات) لمؤانسته فاخبر باتصال شغلي مع الحسن بن وهب فتنكر لي وتلون علي فكتبت اليه رقعة نسختها :

اعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى وصرف ما اعارك من القوة الى حب الانصاف ، ورجح في قلبك ايثار الاناة ، فقد خفت ايدك الله ان اكون عندك من المنسوبين الى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وان امرءاً امسى واصبح سالمـا
من الناس الا مـ جني لسعيـد

وقال الاخر :

ومن دعا الناس الى ذمـه
ذموه بالحق وبالباطـل

فان كنت اجترأت عليك — اصلحك الله — فلم اجترىء الا لان دوام تغافلك عني شبيه بالاهمال الذي يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن ابن حذيفة لعثمان رحمه الله : (عمر كان خيراً لي منك ، ارهبني فأتقاني ، واعطاني فاغناني)

فان كنت لا تهب عقابي — ايدك الله — لخدمة ، فهبه لاياديك عندي ، فان النعمة تشفع في النقمة ، والا تفعل ذلك لذلك فعد الى حسن العادة ، والا فافعل ذلك لحسن الاحدوثة والا فأت ما انت اهله من العفو دون ما انا اهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر حتى اذا صرت الى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ومن لا يعرف الشكر الا لك والانعام الا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ايدك الله ان شين غضبك علي

كزين صفحك عني وان موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك واعلم ان لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام.

وكتب في الشوق

ما ضاء لي نهر ولا دجا ليل مذ فارقتك الا وجدت الشوق اليك قد حز في كبدي والاسف عليك قد اسقط في يدي والنزاع نحوك قد خان جلدي. فأنا بين حشا خافقة ودمعة مهراقة ونفس قد ذبلت بما تجاهد وجوانح قد ابليت بما تكابد وذكرت وانا على فراش الارتماض، ممنوع من لذة الاغتماض، قول بشار:

اذا هتف القمري نازعني الهوى

بشوق فلم املك دموعي من الوجد

ابى الله الا ان يفرق بيننا

وكنا كماء المزن شيب مع الشهد

لقد كان ما بيني زمانا وبينها

كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجري في مودتنا اليه،

في شعره هذا . وذكرت ايضا مارماني به الدهر من فرقة اعزائي من اخواني الذين انت اعزهم ويمتحنني بمن نأى من احبائي وخلصائي الذين انت احبهم واخلصهم ونجرعنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله ان يقرن آيات سروري بالقرب منك ، ولين عيشي بسرعة اوبتك وقلت ابياتا تقصر عن صفة وجدي وكنه ما يتضمنه قلبي وهي :

بخدي من قطر الدموع ندوب
وبالقلب مني مذ نأيت وجيب
ولي نفس حتى الدجى يصدع الحشا
ووجع حنين الفؤاد مذيب
ولي شاهد من ضر نفسي وسقمها
يخبر عني انني لكئيب
كأني لم افجع بفرقة صاحب
ولا غاب عن عيني سواك حبيب

وله من كتاب الى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط ادوى من الغيظ ولا رأيت شيئا هو انفذ من شماتة الاعداء ولا اعلم بابا اجمع لخصال المكروه

من الذل . ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرثي له فهو على سبب دركٍ وان تطاولت به الايام . فكم من كربة فدحة وضيقة مصمتة قد فتحت اقفالها وفككت اغلالها ومهما قصرت فيه فلم اقصر في المعرفة بفضلك وفي حسن النية بيني وبينك لا مشتت الهوى لا مقسم الامل على تقصير قد احتملته وتفريط قد اغتفرته . ولعل ذلك ان يكون من ديون الادلال وجرائم الاغفال ، ومهما كان من ذلك فلن اجمع بين الاساءة والانكار ، وان كنت كما تصف من التقصير وكما تعرف من التفريط ، فاني من شاكري اهل هذا الزمان وحسن الحال متوسط المذهب وانا احمد الله على ان كانت مرتبتك من المنعمين فوق مرتبتي في الشاكرين .

امثلة من جمل الجاحظ تجري مجرى الامثال

احذر من تأمن فانك حذر ممن تخاف ·

قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ خير من كثير وافق من الاسماع نبوة ومن القلوب ملالة ·

عقل المنشيء مشغول وعقل المتصفح فارغ ·

ليس جهد البلاء مد الاعناق وانتظار وقع السيف لان الوقت قصير والحين مغمور · ولكن جهد البلاء ان تظهر الخلة وتطول المدة وتعجز الحيلة ثم لا تعدم صديقا مؤنبا وابن عم شامتا وجارا حاسدا ووليا قد تحول عدوا وزوجة مختلعة وجارية مستبيعة وعبدا يحقرك وولدا ينتهرك ·

خمس يضنين : سراج لا يضيء ورسول بطيء وطعام ينتظر به وابريق يسيل وبيت يكف ·

الفهرس